رؤية تقييمية لمشروع النّهضة عند مالك بن نبي

د. آمال علاوشيش-
جامعة الجزائر2

ملخص:

سنحاول في هذه الورقة تقديم قراءة لمشروع النهضة كما اقترحه المفكر الجزائري **مالك بن نبي** الّذي راهن على الإنسان باعتباره الفاعل الأول في عملية البناء الاجتماعي، هذا الأخير ليس مجرّد إنتاج تراكميّ واستهلاكٍ للحضارة وهي الذّهنية الّتي اكتسحت العقول على اختلاف مستوياتها في المجتمع الجزائري الّذي يعيش نوعاً من التخلف والبربرية برغم هالة التحضّر الّتي تبدو على أفراده، وذلك في مختلف مستويات الحياة اليومية.
النهضة، الفكر، التحضر...

Abstract :
In this paper we will try to present a reading of the Renaissance project as proposed by the Algerian thinker Malik Ben Nabi, who bet on man as the first actor in the process of social construction, the latter is not merely the cumulative production and consumption of civilization, a mindset that swept the minds of different levels in the Algerian society living a kind of Underdevelopment and barbarism despite the aura of urbanization that appears to its members, in various levels of daily life.
Key words : Renaissance, mind, civilisation,…

مقدمة:

في الواقع يعدّ موضوع النّهضة بالأمّة الإسلاميّة مسألة انشغالٍ هامّ ومتجدّد ينبغي طرحه لمعرفة أسباب فشل المحاولات السابّقة من جهة، ولتحديد السّبيل الأنجع لتحقيق نهضةٍ فعليةٍ في جميع المجالات من جهةٍ أخرى، حتّى تعود لنا نحن العرب والمسلمون مكانتنا العلميّة والحضاريّة الّتي تخلّينا عنها بفعل عوامل داخليّة وخارجيّة في آنٍ معاً.

في هذا الإطار سيتناول موضوع هذه الورقة مشروع النّهضة عند **مالك بن نبي** (1905-1973) باعتباره مشروعاً هامّاً لا بدّ من إنجازه إذا أردنا أن نحقّق دوراً ريادياً أو على الأقلّ أن نلحق بالرّكب الحضاريّ، وطبعا سيكون مرجعنا في ذلك كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، حيث يعدّ **مالك بن نبي** من الأوائل الّذين قدّموا تحليلاً لا يُستهان به في هذا السّياق، وهو المهندس الكهربائيّ الّذي شغلته هموم العالم الإسلاميّ ومأساته وهو في ديار الغربة، فصبّ انشغاله في محاولة استكشاف أسبابها لمعرفة المعيقات الحقيقيّة الّتي تقف وراء تخلّف المسلمين الّذين كانوا في يومٍ من الأيّام أرباب العالم كما هم الأمريكان اليوم، لنقف بعدها عند أهمّ أسباب الإخفاق الّتي مني بها هذا المشروع، ونظرة على الواقع الجزائريّ كفيلة بإيضاح ذلك.

في البداية نحبّ أن نشير إلى أنّ مؤلّفات **مالك بن نبي** نشرت في سلسلة **مشكلات الحضارة** وهي كثيرة بعضها كتبه باللّغة الفرنسيّة وقد تمّت ترجمتها كلّها والقليل منها كتب باللّغة العربية، و لكي نقدّم تصوّراً واضحاً عن أفكاره سنتّبع المنهجية التّالية:

أوّلا: النّهضة العربيّة، أسباب النّكوص والتّأخر.
ثانياً: معادلة الحضارة= الإنسان هو رأس المال الحقيقي.
ثالثاً: أسباب الفشل.

عرض:

إنّ إشكالية النّهضة عندنا- وهي مشروعٌ لا يزال مستقبلياً في مجتمعاتنا وإن كنّا نتشدّق اليوم بالحديث عن الحداثة وما بعدها- ترتبط بشكلٍ مباشرٍ بمسألة الأصالة والمعاصرة، فأوّل نهضةٍ عرفها العرب كانت مع ظهور الإسلام بدعوته إلى الوحدانيّة، وهو وضعٌ جديدٌ حارب التّقليد القائم وعارضه ونادى بالعودة إلى الأصل، واستمرّ الأمر كذلك حتّى تمّ تشييد حضارةٍ مترامية الأطراف شهد لها الشّرق والغرب على السّواء، وكما حدث ذلك عند العرب، عرفت أوروبّا بدورها نهضةً اتّخذت لنفسها المنطلقات ذاتها وهي العودة إلى الأصول كما يقول **محمّد عابد الجابري**، لأنّنا نرجع إلى الماضي فنكتشف مزالقه وعيوبه حتّى نتمثّلها ونراجعها بل ونصحّحها إذا اقتضى الأمر، ونحدث من خلال ذلك نوعاً من القطيعة المعرفيّة الّتي تعدّ منعطفاً ثورياً لا بدّ منه، وهي سلوكٌ دفاعيٌ وبنائيٌ في آنٍ معاً[1]، والمعنى أنّ الرّجوع إلى الماضي يحوي مقوّمات شخصية الأمّة الّتي تحتمي بها وتستند إليها لتضمن أصالتها وتميّزها، وفيه تكمن عملية إعادة بناء، وذلك طبعا وفقاً لما يتطلّبه الرّاهن الذّي نحياه ونحاول ما استطعنا الصّمود في وجه تحدّياته، هذه الغاية الّتي يحاول الاستعمار الحيلُولة دُون بلوغها بما يقيمه من سدودٍ أمام كلّ محاولةٍ نقديةٍ أي مراجعة للأخطاء[2].

لقد نجحت النّهضة الأوروبّية الّتي بدأت تقريباً في القرن الثّاني عشر في صورة إحياء الماضي وترافقت مع انهيار النّظام الإقطاعي وبروز الرّأسمالية، وأخفقت نهضتنا الّتي لم تنطلق إلاّ في القرن التّاسع عشر بعدما تراجعت الحضارة الإسلاميّة بفعل عوامل كثيرةٍ متشابكةٍ، وأسباب ذلك كثيرة أهمّها أنّنا لم نعرف من أين نبدأ وبماذا نبدأ.

هذه المسألة أولاها **مالك بن نبي** عنايةً قصوى لأنّ مشكلة نهضة العالم الإسلاميّ هي في الواقع مشكلة حضارية ترتبط بالشّعب برمّته، أي بالإنسان الّذي يصنعها ويقُودها، فلماذا أخفقنا في النّهوض بينما نجح غيرنا ؟

لقد عانت الشّعوب العربيّة الإسلاميّة على العموم زحفاً استعمارياً بغيضاً ترك فيها ويلاتٍ ما زالت آثارها باقية حتّى يومنا، والمستعمر وإن خرج من أراضيها بعسكره ومعدّاته فإنّه لا يزال يسكنها بأفكاره وسمومه الّتي تحوّلت لديها إلى ثقافةٍ تقتات منها، حتّى صار الغرب بالنّسبة إليها- والمستعمر غربي- مقياساً وأصلاً تقاس به الحضارة، فالحركة الإصلاحيّة الّتي قادها **جمال الدّين الأفغاني** (1838-1897) و**محمّد عبده** (1849-1905) و**عبد الحميد بن باديس** (1889-1940) وغيرهم آتت أكلها حيناً بما أحرزته من بعثٍ وتحسيسٍ بضرورة تغيير الأوضاع القائمة، لكنّها سرعان ما انحرفت عن الطريق وتركت الحكمة مكانها للانتهازيّة السّياسية[3]، ففي الجزائر مثلاً قادت جمعية العلماء المسلمين وعلى رأسها

---

[1] محمّد عابد الجابري، **إشكاليات الفكر العربي المعاصر**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،1990)، ط2، ص 24.

[2] مالك بن نبي، **بين التّيه و الرّشاد**، (دمشق: دار الفكر، 1988)، ط2، ص 39.

[3] مالك بن نبي، **شروط النّهضة**، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، (دمشق: دار الفكر،1987)، ط2، ص 28.

الشيخ **عبد الحميد بن باديس** حركة تغييرٍ جذريّ في نفسية الشّعب ترافقت بعقد المؤتمر الإسلاميّ عام 1936 في نادر الترّقي بالعاصمة الجزائريّة، شاركت فيه كلّ التّنظيمات السّياسية الموجودة آنذاك على تباينها واختلافها وأسفر عن جملة مطالب تتلخّص عموماً في مساواة الجزائريين بالفرنسيين وتحقيق فكرة إدماج الجزائر في فرنسا مع محافظتها على شخصيتها العربيّة الإسلاميّة، وتوجّه وفدٌ إلى باريس ليعرضها على حكومة الجبهة الشعبيّة هناك*، ورفض المطلب المتعلّق بالمحافظة على الشّخصية العربيّة الإسلاميّة[4]، وهذا دليلٌ على أنّ المستعمر الغربيّ لا يتنازل عن الأهداف الوحشيّة الّتي يرسمها لأنّه يخطّط لإدراكها بدقّةٍ وإحكامٍ.

إنّ العالم الإسلاميّ في نظر **مالك بن نبي** عالمٌ مريضٌ راح يطلب الشّفاء، فإذا به يدخل صيدليّة الحضارة الغربيّة طالباً العلاج وهو يجهل أسباب مرضه بالتّحديد، وهي بادرةٌ مشجّعةٌ على كلّ حالٍ، ولكنّها عملياً زادت من حدّة الأزمة الّتي يعانيها لأنّ القيم السّلبية الّتي تجرّعها وتبنّاها هي أساس الفوضى الّتي يعيشها فحالت دون تحقيق نهضةٍ حقيقيّةٍ، ومصيبتنا أنّنا صرنا نعاني عجزاً داخلياً ليس مردّه قصورٌ بيولوجيّ فينا إنّما سببه مشكلتنا العقليّة[5]، فقد حاولنا النّهوض ونحن نجهل آلياته وبدل أن نبحث عن العلاج في الدّاخل رُحنا نستورده من الخارج، وكان الأجدر بنا أن نحاول تجديد الرّوح الّتي بعثت الحضارةالإسلاميّة الأولى، أي تلك الفكرة الدّينية الّتي تغلغلت في نفوس المسلمين الأوائل، فحوّلتهم إلى طاقاتٍ فاعلةٍ غيّرت من مجرى التّاريخ الإنسانيّ.

إذا أردنا النّهوض علينا أن نبدأ بإصلاح أنفسنا وليس بشيء آخر ووسيلة هذه الغاية عند مفكّرنا هي الآية القرآنيّة الكريمة: **((إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم))**- سورة **الرعد**- آية 11، فتغيير نفسية المسلم هي علاجه من كلّ داءٍ وعلاج لواقع الأمّة الإسلاميّة ممّا ينخر عظامها منذ قرونٍ خلت، هذا التّغيير ينبغي أن نحرزه في مبادئنا وقناعاتنا، وذلك على مستوى الواقع بشكلٍ خاصّ لأنّ الفكرة إذا لم تتحوّل إلى عملٍ كانت خطاباً أجوفاً وشعاراً أخرقاً لا طائل من ورائه.

إنّ تغيير النّفس هو أساس كلّ تغييرٍ اجتماعيّ " وما أحوجنا إلى المنطق العمليّ في حياتنا لأنّ العقل المجرّد متوافر..غير أنّ العقل التّطبيقي الذّي يتكوّن في جوهره من الإرادة والانتباه فشيء يكاد يكُون معدوماً "[6]، والمعنى أنّنا نعيش حالة عقمٍ اجتماعيّ، فالمستعمر الّذي خرج من بلادنا منذ سنواتٍ لا يزال يعيش بين ظهرانينا، لأنّه درسنا وعرف مواطن الضّعف لدينا وصار بوسعه أن يسخّرنا لما يريده بعلمه وجهلنا، لقد جعل منّا أبواقاً يتحدّث فيها وأقلاماً يكتب بها[7].

---

*تكوّنت من الاشتراكيين والشّيوعيين أي من أحزاب يسارية تقدّمية.

[4] تركي رابح عمامرة، **الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتّربية فيالجزائر**، (الجزائر: المؤسّسة الوطنية للكتاب،1984)، ط4، ص 78.

[5] مالك بن نبي، **شروط النّهضة**، ص40.

[6] المصدر نفسه، ص 102.

[7] المصدر نفسه، ص159.

والتّغيير يعني استعادة الهمّة وإشعاع الرّوح الّذي توقّف أي قوة الإيمان، " فحيثما يخمد إشعاع العقل يفقد الإنسان تعطّشه إلى الفهم وإرادة العمل.."[8]، ودعوة **مالك بن نبي** تهدف في الواقع إل استنهاض همم شبابنا ليُقبل على خوض معترك الحياة بقوة الإيمان والعلم معاً، فالأوّل يزوّده بسندٍ صلبٍ ينطلق منه وبالثّاني يتمكّن من احتلال دورٍ رياديّ في الواقع ولا يكتفي بنقل الحضارة الجاهزة الّتي تقوم على التّكديس لا البناء، لأنّ أكبر عيبٍ هو انفتاحنا على أبواب متاجر الحضارة الغربيّة بدل أن يكّون ذلك على أبواب مدارسها[9]، الأمر الّذي أوقعنا في تبعيةٍ وانهزاميةٍ لا نحسد عليهما وصرنا بمقتضى ذلك زبائن دائمين لمنتجاته.

إنّنا كما يقول **مالك بن نبي** نملك قابلية للاستعمار والنّفس المسلمة ذاتها هي الّتي صارت تقبل ذلّه وتمكّن له في أرضها، وواقعنا شاهدٌ على ذلك، فالمستعمر يوجّهنا من حيث لا ندري الوجهة الّتي يريدها هو لا نحن لأنّه درس أوضاعنا النّفسية وأدرك مواطن الضّعف فينا فاستغلّها وراح يتصرّف في أوضاعنا الاجتماعيّة، وهنا يتبدّى الصّراع الفكريّ على حقيقته، حيث " يعمل الاستعمار على امتصاص القوى الواعية...بمقاومتها إمّا بوسائل القوّة أو بوسائل الإغراء.."[10]، بخاصّةٍ وأنّنا مستعدّون لتقبّل الإيحاءات الّتي توجّه سلوكنا فهناك "مختبرات متخصّصة في الكيمياء السّياسية تخصّصاً عميقاً يعدّ تلك الإيحاءات ويشحنها في شعورنا بالطّرق المناسبة.."[11]، ومن الأسباب المباشرة الّتي ساعدت على خلق مثل هذا الواقع في البلاد الإسلاميّة توغّل حركات الاستشراق في الحياة العقليّة محدّدةً بذلك اتّجاهها التّاريخي إلى درجةٍ كبيرةٍ[12].

إنّ المشكلة في العالم الإسلاميّ هي مشكلة إنسانٍ فقد وجهته وأضاعها لأنّه لم يحدّد الهدف بإحكامٍ منذ البداية، واستلذّ العيش على هامش الحضارة بدل أن ينشئها فيستعيد مجده وراح " يشيد بقدسية القيم الإسلاميّة بدل أن يزوّدها بما يجعلها قادرةً على مواجهة روح العصر.."[13]، الأمر الّذي جعلها أفكاراًمن دون فعّالية، وحده وعينا بحقيقة استعدادنا النّفسي لخدمة المستعمر من شأنه أن يتيح لنا إعادة بناء علاقاتنا الاجتماعيّة فيما بيننا في الدّاخل والخارج على السّواء، ونحميها من خطر القوارض الّذين يوضعون في طريقها عمداً[14]، فنؤمن بقيمة العمل الجماعيّ وتحترس ذواتنا كما يقول مفكّرنا من أن تصاب بالتّضخّم[15]، فحقيقة حياة الإنسان تقُوم على الرّوابط والمسؤوليات المتبادلة ومن شأن غير ذلك أن يشتّت الجهد المبذول ويخلق نقاشاتٍ خرقاء لا طائل يُرجى من ورائها سوى تبديد الوقت وتكريس الصّراع وهو ما يتمنّاه الغرب لنا، ومن جهةٍ أخرى علينا أن نبدع الحلول لمشاكلنا الخاصّة ولا نعمل على استيرادها واقتباسها لأنّ الفكرة مهما كانت هي وليدة إطارٍ اجتماعيّ خاصّ

---

[8]مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، (دمشق: دار الفكر،1986)، ط 5، ص 31.

[9] مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص71.

[10]مالك بن نبي، **الصّراع الفكري في البلاد المستعمرة**، (دمشق: دار الفكر، 1979)، ص 16.

[11] المصدر نفسه، ص 65.

[12]مالك بن نبي، **الظّاهرة القرآنية**، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، (دمشق: دار الفكر،1987)، ط 1، ص 55.

[13]مالك بن نبي، **شروط النّهضة**، ص 112.

[14]مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية**، ج1، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، (دمشق: دار الفكر،1974)، ص 91.

[15]المصدر السّابق، ص 24.

بها قد لا تصلح لغيره، مثل النبتة الّتي تشترط لنموّها تربةً خاصّةً وشروطاً مناخيةً لا تتوفّر في كلّ المناطق، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ حاجاتنا هي من قبيل مشاكلنا ينبغي أن تكُون حقيقيّةً أي نعانيها ونكابدها فعلياً حتّى لا نصاب باستلابٍ يجعلنا نبحث عن حلولٍ لمعاناةٍ وهميةٍ لا تمتّ لواقعنا أو ديننا بأيّ صلةٍ.

والمعنى من كلّ هذا أنّه لابدّ من إصلاح حال الإنسان، فذاك رأس مالٍ لا ينضب ينبغي استثماره باعتباره مصدر باقي الخيرات، أي بدل أن نستثمر في الأموال علينا أن نستثمر في البشر كما يقول مفكّرنا[16]، وهذا ما تحاول بعض المراكز المتخصّصة في التّنمية البشرية القيام به اليوم.

إنّ مشكلة الإنسان هي مشكلة أفكاره وثقافته الّتي ينبغي توجيهها، فالغرب يحتكر أفكاره ويفرض في الآن نفسه الرّقابة على الأفكار في المجتمعات الإسلاميّة حتّى يتمكّن من تتبّع حركاتها " فيتخلّص من تلك الّتي تضايقه وينحرف بها عن مراميها بأن يوجّهها خارج المدار الّذي أراد أصحابها استبقاءها فيه.."[17]، فالإنسان يؤثّر في المجتمع بفكره وعمله وماله وهي عوامل إذا تضافرت فيما بينها حقّقت نهضةً حقيقيّة. بعبارةٍ أخرى، فإنّ حلّ مشكلة الإنسان إنّما تكمُن في توجيه ثقافته وعمله ورأسماله، والأولى هي" التّركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق والجمال والمنطق العمليّ والصّناعة "[18].

علينا أن نعرف مثلنا العليا ونعُود للتمسّك بها من جديدٍ ليظهر أثرها في سلوكنا العمليّ الّذي يكُون نشطاً وفعّالاً، وذلك بأن تتوجّه الجهود الجماعيّة في اتّجاهٍ واحدٍ بما في ذلك جهد الرّاعي والتّاجر والطّالب والعالم والمرأة والفلاّح، فيضع كلّ منهم كلّ يومٍ لبنةً جديدةً في البناء، ولا يتم ذلك إلاّ بوضع برنامجٍ تربويٍ يصلح لتغيير الإنسان الّذي بداخلنا.

أمّا المال فلا قيمة له إلاّ إذا كان متحرّكاً ينمو باستمرارٍ من خلال الحركة الاجتماعيّة الّتي يخضع لها لأنّه بذلك يوظّف الأيدي والعقول، هذا هو الأسلوب الّذي يحقّق معادلة الحضارة، فالعقل المجرّد كما يرى **مالك بن نبي** موجود في بلادنا غير أنّ العقل التّطبيقي الّذي يتكوّن في جوهره من الانتباه شيئاً يكاد يكُون معدوماً وذلك لأنّنا نفتقد الضّابط الّذي يربط بين الأشياء ووسائلها وبين الأشياء وأهدافها[19].

إلى جانب ذلك، فإنّ للمشكلة وجهاً آخر، فالتّراب من حيث قيمته الاجتماعيّة مهملٌ والأراضي الزّراعية في بعض البلدان الإسلاميّة- منها الجزائر- بدأت تتقهقر أمام غزو الصّحراء والأسمنت على السّواء ممّ سبّب موت الأرض الخضراء وفرار سكّان البوادي، وهو ما يهدّد مستقبل الأجيال القادمة لأنّ الأرض هبة من الله ينبغي تعهّدها بالرّعاية والإصلاح بواسطة العمل مهما كان شاقاً، أمّا الوجه الثّالث للمشكلة فهو الوقت الّذي ينتهي عندنا في العالم الإسلاميّ " إلى عدمٍ...لأنّنا لا ندرك قيمة أجزائه من ساعةٍ ودقيقةٍ وثانية.."[20]، ولو استغلّ في مجتمعاتنا فسترتفع كمّية حصادنا العقلي والرّوحي على حدّ سواء، لأنّ الوقت هو الإنتاج وتلك هي الحضارة، ونحن قد افتقدنا المنهج الّذي يلاءم

---

[16] مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، (دمشق:دار الفكر، 1987)، ط 1، ص 71.

[17] مالك بن نبي، **فكرة كومنولث إسلامي**، ترجمة: الطيب الشريف، (دمشق: دار الفكر،1990)، ط 2، ص 55.

[18]مالك بن نبي، **مشكلة الثّقافة**، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، 1984)، ط 4، ص 67.

[19]مالك بن نبي، **مشكلة الثّقافة**، ص ص(88-86).

[20]مالك بن نبي، **شروط النّهضة**، ص 146.

التّركيب بين هذه العناصر ليُسهم في خلق منتوج حضاريّ، أي أنّنا لم نجد بعد السّياسة الّتي تتّفق وهذه الوسائل الّتي بحوزتنا والّتي تعدّ الأساس في كلّ نهضةٍ، فالقضيّة إذن بالنّسبة للعالم الإسلاميّ ليست قضيّة إمكانٍ ماليّ ولكنّها " قضيّة تعبئة الطاقات الاجتماعيّة أي الإنسان والتّراب والوقت.."[21].

إنّ السّياسة المتّبعة في عالمنا الإسلاميّ كما يقول **مالك بن نبي** سياسةٌ خرقاء[22] لأنّها تخفي عن المسلم مشاكله الحقيقيّة وتبحث عن الحلول لدى هيئاتٍ دوليةٍ مثل هيئة الأمم المتّحدة وصندوق النّقد الدّولي وغيرهما، وهذه الأخيرة كما أصبح معروفاً تتدخّل بمنطق التّعالي والهيمنة الّذي يفرض نهجه وأسلوبه متجاهلاً خصوصيّة المجتمعات وسيادتها الدّاخلية والخارجية على السّواء. هذا الواقع تعانيه كلّ المجتمعات الإسلاميّة لأنّ مشاكلها متشابهة إلى حدّ بعيدٍ وفي كلّ المجالات.

لقد درس المستعمر هذه العناصر وراح يستغلّها بطريقةٍ محكمةٍ بأن زيّف تصوّرنا للأشياء وجعلنا نفقد الثّقة في أنفسنا وقدراتنا وإمكاناتنا وهذا مرضٌ اجتماعيّ خبيثٌ أصابنا ولا زال ينخر في عظامنا رغم وعينا، لأنّنا فقدنا قيمنا الرّوحية المستمدّة من التّوحيد والإيمان والأخلاق الإسلاميّة السّامية الّتي كانت تلهمنا فيما مضى وتبعث فينا القوّة والصّمود، لقد غزانا بفكره وأفرغ عقولنا وأصابنا بعطبٍ اجتماعيّ وذلك بترسيخ مفاهيمه في عقولنا، هذا ما كان يفعله وهو داخل أراضينا واليوم وهو خارجها لا يزال بما يبثّه في مجتمعاتنا من برامج إعلاميّةٍ نستهلكها كما لو كانت الأوكسجين الّذي نتنفّسه ويتنفّسه أبناؤنا أمل ومستقبل هذه الأمّة، هذا القطاع - قطاع الإعلام - الّذي ينبغي الاهتمام به في ظلّ ظاهرة العولمة الّتي تجتاحنا، وذلك بأن نعمل على صياغة مشروعٍ إعلاميّ إيمانيّ المنطلقات وإنسانيّ التّطلعات يلتزم ضوابط وثوابت الشّريعة الإسلاميّة السّمحة[23]، وبرغم بعض المحاولات من هنا وهناك لصدّ هذا الغزو الإعلامي وفضح مخطّطاته فإنّها تفتقد إلى الفعّالية وإحراز النّتائج لأنّها جهودٌ متناثرةٌ تعكس واقع تشتّت هذه الأمّة وانعدام الوحدة بين أبناءها.

هذا المشروع سيظلّ حلماً يراود المسلمين عبر العالم ويعقدون الآمال في أن يتحقّق من غير أن يحرّكوا في سبيل ذلك ساكناً، لأنّ خوفهم من الغرب وانبهارهم به أصبح قدراً محتوماً عليهم وذلك برغم الصّراعات الأيديولوجيّة الّتي يتخبطون فيها، وبدل أن يكوّنوا عالماً واحداً صاروا يكوّنون عوالم كثيرة.

لقد تحدث **مالك بن نبي** في كتابه: **فكرة كومنولث إسلامي**، عن مشروع وحدةٍ للعالم الإسلاميّ يمكن أن يكون المخرج من هذه الأزمة، لأنّ مثل هذه المبادرة من شأنها أن تمنحه موقعاً فعلياً في خريطة العالم المعاصر، وهي فكرة عرض لها المفكّر في نهاية الخمسينات في ظلّ انقسام العالم إلى محورين: محور واشنطن- موسكو، ومحور طنجة - جاكرتا، الأوّل محور الأقوياء الّذين يفرضون سياستهم والثّاني محور المغلوبين على أمرهم.

---

[21] مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، ص 71.

[22] مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص 101.

[23] أحمد مبارك سالم، **المسلمون والآخر، حوار وتفاهم وتبادل حضاري**، (البحرين: وزارة الإعلام، 2005)، ط 1، ص 155.

هذه الوحدة لا يمكنها أن تتحقّق إلاّ بعملية تخطيطٍ شاملةٍ تنظّم شؤون البلاد الإسلاميّة في الداخل، وهي الّتي قد عاشت لزمنٍ طويلٍ ولا تزال جزءاً من مجتمعٍ عالميّ يبيعها أشياءه ويفرض مقاييسه، ففوضانا داخلية يغذّيها الغرب من جهة ونغذّيها نحن بخلافاتنا الفكريّة والمذهبيّة إلى درجة إحداث الفتن، والمعنى أنّ مشاكلنا ذاتيةٌ ونفسيةٌ قبل أن تكون موضوعيّة، والخطر هو في أن تندلع لدينا ثورة لا تكون لنا السّيطرة عليها.

مادامت هناك عوالم إسلامية فإنّ مشاكل العالم الإسلاميّ متعدّدةٌ ومعقّدةٌ في آنٍ واحدٍ، وربّما الميزة النّظرية الوحيدة الّتي احتفظ بها هي وحدته الرّوحية الّتي قد تسمح على الأقل بتماسك المشروع من النّاحية النّفسية، وهو الأمر الّذي يتطلّب توفّر إرادةٍ جماعيةٍ تسمح بانبثاق " اتّحاد فدراليّ بين العوالم الإسلاميّة يترأّسه مؤتمر إسلاميّ يقُوم بدور الهيئة المنفّذة.."[24]، وفي هذه الحالة سنجد أنفسنا أمام عناصر مستعصية، حيث يجب أن نأخذ في الاعتبار خصوصيّة كلّ عالمٍ، هويّته، أصالته وتاريخه وأنواع القرابات الّتي يمكن أن تنشأ فتضمّه إلى العوالم الأخرى، وهو ما ينبغي أن يبدأ حسب **بن نبي** من الداخل – نقطة الإشعاع – إلى الخارج – نقطة الالتقاء – وذلك سيشبه إلى حدّ بعيدٍ بداية الدّعوة المحمّدية عندما انطلقت من مكّة- المركز- لتعمّ أقطار المعمورة تدريجياً، والمعنى أنّه لا بدّ من وحدة الهدف أوّلاً، أي التشبّع بفكرةٍ وقيمةٍ مشتركةٍ منزّهةٍ عن الأغراض والمصالح العارضة.

غير أنّ الرّاهن لا يؤكّد إمكانية هذا الاحتمال لأنّ المركز غالباً ما يكُون عبارةً عن قوى سياسيّة تقوم بالتّأويل ممّا يسبّب انحراف الفكرة عن وجهتها، والحلّ هو في إنشاء لجانٍ محلّية في كلّ بلدٍ تتولّى دراسة المشروع، وهو ما "يشكّل المرحلة التّكوينية للكومنولث، لأنّه يكون قد نشأ في عالم الأفكار.."[25]، وتدريجياً تتّصل اللّجان فيما بينها لتتبادل المعارف والخبرات ممّا يشكّل تيّاراً واحداً هو الهدف الرّئيسي من المشروع، فتتجمّع الطّاقات البشريّة وتلتقي في نقطةٍ معيّنةٍ، والخلاصة أنّ المشروع يبدأ بفكرةٍ لينتهي إلى واقع.

من هذا المنطلق تتجلّى بوضوحٍ الأهمّية البالغة الّتي تحتلّها الأفكار في العالم الإسلاميّ، لأنّ عالم أفكارنا يتكوّن بالتّدريج وبالتّالي ينمو مستوى وعينا فنتجاوز الإطار الفرديّ تدريجياً حتّى نصل إلى دائرة العالميّة، والمسلم الّذي نريده هو ذلك الّذي يدرك البعد التّاريخي لمسؤوليته ويتنزّه عن انتماءه القوميّ أو الوطنيّ.

إنّ ما يجمع العوالم الإسلاميّة كثيرٌ ومتعدّدٌ، وإذا كانت أوروبّا بقومياتها المتعدّدة ونزعاتها العرقيّة المتصارعة وألسنتها الكثيرة قد استطاعت أن تكوّن اتّحاداً أوروبّياً قائماً على مصالح اقتصاديّة، فإنّنا نحن المسلمون بوسعنا لو بعثنا إشعاع الرّوح المحمّدية فينا أن نكوّن أمةً حقيقيةً لها أن تتصدّى للغرب وتستعيد مكانتها الحضاريّة الضّائعة.

في هذا السّياق **يؤكّد طه عبد الرّحمن** أنّ الحداثة الغربية بمنجزاتها الهائلة في مجال العلم والتّقنية، ورّثت أهلها قوةً شاملةً في مجال المادة جعلتهم يطلبون الزّيادة منها بغرض الهيمنة حتّى تحوّل ذلك إلى ممارسةٍ للاستبداد على المجتمعات الأخرى – وبخاصّة الإسلاميّة منها– الأمر الّذي يعني أنّها- الحداثة- ولّدت في الغرب ضعفاً روحياً فاحشاً[26] وهو الواقع الّذي

---

[24] مالك بن نبي، **فكرة كومنولث إسلامي**، ص 44.

[25] مالك بن نبي، **فكرة كومنولث إسلامي**، ص 47.

[26] طه عبد الرّحمن، **روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية**،(الدار البيضاء: المركز الثّقافي العربي،2006)، ط1، ص 57.

ينبغي أن نحذره حتّى نتحرّر من الإبداع المقلّد لنحقّق إبداعاً مبدعاً، فأرباب التّكنولوجيا لم يسمحوا لنا بتعلّم دقائقها وتفاصيلها وليس لنا من خيارٍ سوى طريقة التّبني أو إبداع البدائل، وليكن منطلقنا في ذلك أنّ الإنسان هو الّذي ينشأ الحداثة ويبني الحضارة وليس العكس، ولنحذر الوقوع في فخّ التّماهي مع الآخر.

في الأخير نخلص إلى نتيجةٍ لا مفرّ منها وهي أنّ نهضة العالم الإسلاميّ ليست بالحلم المستحيل لأنّه عالمٌ يزخر بالطاقات الشّابة المستنيرة والواعدة الّتي بوسعها أن تعيد مجده وتؤسّس لواقعٍ جديدٍ متطوّرٍ في جميع المجالات يُضاهي الواقع الغربيّ ويتفوّق عليه، ويصبح مع مرور الوقت منفذاً للغرب وملجأ يحتمي فيه من نفسه.

في الختام نقول أنّ مشروع النّهضة كما اقترحه المفكر الجزائري **مالك بن نبي** راهن على الإنسان باعتباره الفاعل الأول في عملية البناء الاجتماعيّ، هذا البناء ليس مجرّد إنتاجٍ تراكميّ واستهلاكٍ للحضارة، وهي الذّهنية الّتي اكتسحت العقول على اختلاف مستوياتها في المجتمع الجزائريّ الّذي يعيش نوعاً من التخلّف والبربريّة برغم هالة التحضّر الّتي تبدو على أفراده، وذلك في مختلف مستويات الحياة اليوميّة، خصوصاً وأنّه مسكونٌ بالتّصور المغلوط عن الحداثة القائم على الاعتقاد بأنّ تطوير وسائل الإنتاج المادّية باقتباسها من الغرب هو وسيلة التقدّم، وبالتّالي فإنّه يقوم على نقل التّكنولوجيا الجاهزة.

هذه الحداثة الّتي تعني فيما تعنيه محْق الاختلافات والتّغييرات والتّجدد أي توحيد نمط العيش بحسب أنموذج الحياة الغربيّة وإقحام الحضارات المختلفة فيها إقحاماً باسم التّنمية والتقدّم، وذلك بأن تحشر دول العالم الثّالث على الخصوص في دوّامة الإنماء الجهنّمية تحت غطاء إيديولوجيّةٍ مغلوطةٍ[27]، إنّها الإيديولوجيّة الّتي اتّخذت وهم التّحديث الّذي عمل الغرب على تصديره للآخر- إلينا- باسم العولمة (mondialisation) والكونيّة (universalisme)، وذلك من خلال فرض بديلٍ يرتكز على قيمٍ براغماتيّةٍ تستند على الحاجة والمصلحة، وهي الدّيانة الجديدة الّتي رحنا نعتنقها في العالم العربيّ عموماً وفي الجزائر على وجهٍ خاصّ.

لقد وقعنا في فخّ التّفرنج والتّغريب الّذي استهدف المسخ والنّسخ والتّشويه للذّاتية والهويّة الحضاريّة، بل وفي نوعٍ من العمالة شبه الكاملة للحضارة الغربيّة ومشروعها كما يقول **محمد عمارة[28]. إنّ أزماتنا الماديّة والرّوحية والفكريّة والثقافيّة والأخلاقية قد تفاقمت، والأنانية والذاتيّة والنّفعية والنرجسيّة قد ترسّخت، وينبغي علينا أن نعترف بأخطائنا، فنحن لم نحقّق في عالمنا العربيّ الحديث والمعاصر ثورة ثقافيّة أو فكريّة فعليّة، والنّهضة الّتي بدأت في صفوف المثقفين لم تنزل مطلقاً وبشكلٍ عمليّ إلى ساحة الجماهير، وذلك بسبب أنّ آليات التّفكير الاجتماعيّ عندنا لم تتغيّر، بل على العكس، وبرامجنا التربويّة حتّى اللّحظة تتغافل عن هذا، حتّى أنّ نظام التّعليم لا يؤثّر في تغيير الذّهنيات، ولا يزال نظاماً يخدم ثقافة الصّمت[29]، وما أبعد هذا الواقع عمّا نحن بحاجةٍ إليه.**

---

[27] فتحي ورشيدة التريكي، **فلسفة الحداثة**، (بيروت: دار الإنماء القومي، 1992)، ط1، ص 13.

[28] محمد عمارة، **الإسلام بين التّنوير والتّزوير**، (القاهرة: دار الشروق، 2002)، ط2، ص117.

[29] عبد المعطي سويد، **هياكل التّنوير والحداثة المبتورة في الوطن العربي**، (القاهرة: مؤسسة الانتشار العالمي، 2006)، ط1، ص111.

إنّ نهَمنا المادّي لا يزال متواصلاً ويشتدّ يوماً بعد يوم وبحدّةٍ أكبر وانشطارنا الوجوديّ والازدواجيّة الّتي عشناها ولا زلنا نحياها تحتلّ مساحاتٍ أكبر فأكبر في وجداننا وأساليب تربيتنا وكأنّنا فقدنا بذلك حتّى الرّغبة في التّفكير حتّى لا نقول التّغيير.

طالما ظلّت ثقافتنا وتفكيرنا مرتبطان حتى اللّحظة بالآخر،– أيّاً كان– فإنّنا سنظلّ نعيش عصر إخضاعٍ للنّفوس عن بعدٍ من دُون عسكرٍ أو مَدافع وهو ما عبّر عنه هربرت ماركوز بوضوحٍ في كتابه: الإنسان ذو البعد الواحد، وذلك في ظلّ تعطّل فاعليّة العقل وتنميط الأذواق وقولبة السّلوك وتسُطيح الوعي، لتتقلّص الحياة في البعد الاستهلاكيّ المحض عن طريق إستراتيجيّة أساليب الإشهار والدّعاية الملحّة، وهو الوضع الذي يعكس إمبرياليّة عالميّة على جميع الأصعدة.

إنّ إنساننا قد فقد فاعليته الّتي تعدّ رأسماله الحقيقيّ وكأنّه ابتُلي بنوعٍ من العطَالة الذّاتية أو الإعاقة الدّائمة، وهو موقفٌ سلبيٌ وانهزاميّ لا يليق بمجتمعٍ تزخر أرضه بثرواتٍ طبيعيةٍ هائلةٍ، ويملك من المؤهّلات والكفاءات العلميّة ما يتيح له استغلالها بأفضل الأساليب الممكنة، وإن كنّا لا ننكر النّزعة العولميّة القائمة على الرّغبة في تنميط العالم (la standardisation du monde) إن لم نقل أمركته (Américanisation).

علينا أن نحرّر هذه الأنا المكبّلة من جشع الثّروة، والرّغبة المحمومة في النّفوذ، والانتهازيّة المفرطة الّتي تجتاح الأنفس بخاصّةٍ لدى النّخبة الّتي يفترض أنّها الفئة المستنيرة الّتي يقع على عاتقها عبئ القيادة والتّغيير ضمن راهنٍ مهدّدٍ بالانفجار في أيّ لحظةٍ، نظراً لأنّ الثّروة فيه منهوبة ويتمّ استغلالها وتهريبها بطرقٍ تتستّر بغطاءٍ قانونيّ.

إنّ المجتمع الجزائري لا يفتقر إلى أيّ من شروط النّهضة الّتي حدّدها **مالك بن نبي،** ومعاناته إنّما هي وليدة سوء تسييرٍ وإدارةٍ بيروقراطيةٍ لا تزال قائمةً ومستفحلةً رغم بعض الجهود الإصلاحية المتناثرة من هنا وهناك، والحلّ للخروج من هذه الأزمة الّتي طال أمدها هو في أن نعيد بناء ذهنية الإنسان الجزائري وفقاً لمشروعٍ متكاملٍ يأخذ في حسبانه أبعاد الحياة الإنسانيّة في عمومها، من غير أن يحاكي نماذج أجنبيّة عن تربته وعاداته وأصوله، ويبقى بذلك الاستثمار الفعليّ في العنصر البشري الأداة المثلى لإحراز هذه الغاية.

قائمة المراجع:

- محمّد عابد الجابري، **إشكاليات الفكر العربي المعاصر،** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1990).
- تركي رابح عمامرة، **الشيخ عبدالحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتّربية في الجزائر،**(الجزائر: المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1984)، ط4.
- مالك بن نبي، **شروط النّهضة،** ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، 1987)، ط2.
- مالك بن نبي، **الصّراع الفكري في البلاد المستعمرة،** (دمشق: دار الفكر، 1979).
- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي،** ترجمة: عبد الصّبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، 1986)، ط 5.
- مالك بن نبي، **بين التّيه و الرّشاد،** (دمشق: دار الفكر، 1988)، ط2.

- مالك بن نبي، **الظّاهرة القرآنية**، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، 1987)، ط 1.
- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية**، ج1، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، 1974).
- مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، (دمشق: دار الفكر، 1987)، ط 1.
- مالك بن نبي، **فكرة كومنولث إسلامي**، ترجمة: الطيب الشريف، (دمشق: دار الفكر، 1990)، ط 2.
- أحمد مبارك سالم، **المسلمون والآخر، حوار وتفاهم وتبادل حضاري**، (البحرين: وزارة الإعلام، 2005)، ط 1.
-طه عبد الرّحمن، **روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية**، (الدار البيضاء: المركز الثّقافي العربي، 2006)، ط 1.
- محمد عمارة، **الإسلام بين التّنوير والتّزوير**، (القاهرة: دار الشروق، 2002)، ط2.
- عبد المعطي سويد، **هياكل التّنوير والحداثة المبتورة في الوطن العربي**، (القاهرة: مؤسسة الانتشار العالمي، 2006)، ط1.